حمزة [بن علي] (١)

أبو يعلى بن العين زربي، الشاعر، كان فصيحاً فاضلاً أديباً، لما فتح أتْسِز بن أوق القدس وقتل بها ذاك العالم العظيم كان حمزة بالقدس، فقُتِلَ بالحرم في شوال رحمه الله، ومن شعره: [من السريع]

يا راكباً يقطعُ عرضَ الفلا بَلِّغْ أحبَّائي الذي تسمعُ
وقُلْ لهم ما جَفَّ لي مَدْمَعٌ ولا هنا لي بعدَكُمْ مضجَعُ
ولا لَقيتُ الطَّيفَ مُذْ غبتُمُ وإنَّما يلقاهُ مَنْ يهجَعُ

وقال: [من الطويل]

تناسيتُمُ عهدَ الهوى بعدَ تذكارِ فأجرى حديثي عِندكُم دمعيَ الجاري
وأنكرتُمُ بعدَ اعترافِ مودَّتي فهيَّجتُمُ وجدي وأضرمتُمُ ناري
وهَلْ دامَ في الأيَّامِ وَصْلٌ لهاجِرٍ وودٌّ لِخَوَّانٍ وعهدٌ لِغَدَّارِ
أَما حاكمٌ لي في هواكُمْ يُقيْلني أمَا آخذٌ لي بعدَ سفكِ دمي ثاري
وإنِّي لصبَّارٌ على ما ينوبني ولكن على هجرانكُمْ غيرُ صَبَّارِ

طاهر بن أحمد بن بابَشاذ(٢)

أبو الحسن، النَّحْوي، المصري، صاحب المقدمة المشهورة، كان عالماً فاضلاً، وله تصانيف في النحو، وسمع الحديث ورواه، وقُرئ عليه الأدب بجامع مصر سنين، صعد يوماً إلى سطح جامع مصر فوقع فمات من ساعته في رجب.

السنة السبعون وأربع مئة

فيها في ثالث المُحرَّم قتل السلطانُ جلالُ الدولة ملك شاه أنموه بن أتابك صاحب الجيش، وكان قد عصى عليه.

---

(١) تاريخ دمشق ١٥/ ٢١٢-٢١٣، ومعجم الأدباء ١١/ ٥-٨، ومابين حاصرتين من المصادر.
(٢) معجم الأدباء ١٢/ ١٧-١٩. وتنظر باقي مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٤٣٩.

وفي يوم الخميس النصف من صفر قدم مؤيد الملك بن أبي بكر نظام الملك إلى بغداد، وخرج إلى لقائه الوزير فخرُ الدولة بن جَهير وولدُه عميد الدولة وجميعُ الخدم والحُجَّاب إلى الحلبة، وجاء إلى بيت النوبة، فخدم وانصرف.

وفي يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول تُوفِّي القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد ابن البيضاوي، الشافعي.

وفي ربيع الأول ظهر في السماء حُمرةٌ مستديرةٌ كنصف دائرة كبيرة، ثم عقبها ريحٌ شديدةٌ ورعدٌ وبرقٌ شديد، ووقعت منه صاعقةٌ في محلة التُّوتةِ غربي بغداد على نخلتين في مسجد فأحرقَتْهما، واشتعل سَعَفُهما وكَرَبُهما وليفُهما، وأخذ الصبيان من السَّعَفِ والنار تشتعل فيه وهو يَقِدُ كالشمع وأُطفِئت النار(١).

وفيه جاء خطلج دُزْدار(٢) أمير المؤمنين إلى الديوان يطلب تشريفاً، وكان قد ظلم أهلَ الكوفة وأخذ أموالهم، فقيل له في الجواب: ما تقدَّم منك ما يوجب ذلك، ولا ما يقتضيه. فخرج مُغضَباً، وعاد إلى الكوفة، واجتاز بنهر الملك، فقبض على نائب الخليفة في ضياعه، وأخذه معه إلى الكوفة، ثم أطلقه، فكتب الوزير إلى نظام الملك بما جرى وما أقدَمَ عليه خطلج من خرق الهيبة، فكتب نظام الملك من ديوان ملك شاه كتاباً إلى خطلج يُوبِّخه ويلومه ويقول: أيها السلار سيف الدولة، وفَّقكَ اللهُ للرشد، إن قوامَ الدين والدنيا ومصالحَ البلاد والعباد وسكونَ الدهماء ونظامَ الأحوال كلِّها معقودٌ بأُبَّهة المواقف الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المقتدية، ظاهرَ اللهُ مجدَها، وقمعَ ضِدَّها، التي هي الظِّل الظليلُ في أرضه،و رحمتُه على خلقه، وجميعُ ما يشملنا ويصفو لنا ويصفو علينا، من عوارف الله تعالى ومواهبه ونعمه وعوائده، فمِنْ أيامِها الزاهرة، ودولتِها القاهرة، وبركاتِ توفُّرِنا على عبوديتها، وقيامِنا بمفروضِ طاعتها، وانتسابِنا أين كنَّا وحيث حلَلْنا إلى خدمتها، ومَنْ يبغِ في خلافِ خلافِها، ومدَّ عُنُقَه عن ربقة بياعتها، فلا همَّ لنا إلَّا شدْخَ هامته، وإقامةَ قيامتِه كيف وافى، ومن أين لكَ أن تُلِحَّ على السُّدَّة العزيزة بما لو ورد إلى فَمِكَ لهَتَمه(٣)، ولو حُمِلَ على ظهرك

---

(١) الخبر بنحوه في المنتظم ١٦/ ١٩٠ . والكَرَبُ: جمع كَرَبة، وهي أصل السَّعَفةِ العريضة. اللسان (كرب).

(٢) في (خ): أدرار، ودُزْدار: لفظ أعجمي معناه: حافظ القلعة وهو الوالي. وفيات الأعيان ٧/ ١٤٢ .

(٣) الهَتْم: الكسر. المعجم الوسيط (هتم).

لقصَمَه، ثم تُلفي في منصرفك عنها بعضَ المنتمين إليها فتُرجِّله عن دابته وتمدُّ يَدَك إلى أذيته، ولقد عظُمَ علينا استماعُ ما تمادى منك إليه، وما بدا من فعلك المستنكرِ عليه، ولو رأتِ المواقفُ الجلاليةُ تقويمَكَ بأن تجعلك عبرةً لغيرك لأمرتُ به، ولكنَّها أبَتْ عواطفُها الكريمة، ورحمتُها الواسعةُ العميمة إلا إعراضاً عن جريمتك، وإغضاءً عن عقوبتك، ولعِلْمنا بأنَّ المواقف المقدسة الإمامية لا تستجيز عقوبتك، ولا ترى مقاتلتك، فمَرِّغْ خدودَك على تراب الهيبة الشريفة، وتضرَّعْ إلى مكارم تلك المراتب المُنيفة، وتعلَّق بأذيال تلك المكارم الفائضة، واستدِرَّ ظلالَ الرحمة الواسعة، وذكر كلاماً هذا معناه.

وفيها ورد كتاب أرتق بك من الأحساء باستظهاره على القرامطة وأخْذِ بلادهم وغنيمتِهم، فحضر أرتق بك في الديوان وقرأه، وخرج توقيع الخليفة يشكره، وخلع عليه، وأعطي الفرس بمركب ذهب والمنجوق وثياباً.

وفي شعبان تُوفِّيت بنت الوزير نظام الملك زوجة عميد الملك، وجلس الوزيرُ ولدُه في العزاء، ودُفنت بدار الوزير بباب عمورية، ولم تكن العادةُ جاريةً بالدفن فيما يدور عليه السور.

وفي رمضان حُمِلَ إلى مكة منبرٌ كبيرٌ مُذْهَب، تولَّى عمَلَه فخر الدولة بن جَهير في داره، وكُتِبَ عليه اسم الخليفة وألقابُه والآياتُ المتعلقة بالحاج ومكة، فاتَّفق وصولُه إلى مكة وقد أُعيدت الخطبة المصرية، فآل أمرُه إلى أن أُحرِقَ.

وفيها ورد كتاب نظام الملك إلى أبي إسحاق الشيرازي جواباً عن كتابه المتقدِّم يشكو فيه الحنابلة نسختُه: وردَ كتابُكَ أيها الشيخ بشرحٍ أطَلْتَ فيه الخطابَ، وندبتنا إلى استدعاء الجواب، وليس من الواجب أن نتحيَّز في المذهب إلى جهةٍ دون جهة، وليس ذلك مقتضى السياسة والمعدلة في الرعية، ونحن بتأييد السُّنن أولى من تشييد الفتن، ولم يتقدَّم بنيان هذه المدرسة إلا لضيافة العلم والمصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمورُ على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب فليس إلَّا التقدم على بغداد ونواحيها، ونقلهم عما جَرَتْ عليه عادتهم فيها، فإن الغالب هناك هو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، ومحلُّه بين الأئمة وقدرُه

معلومٌ في السنة، وكان ما انتهى إلينا أن السبب في تجديد ما تجدَّد مسألة سئل عنها أبو نصر بن القشيري من الأصول، فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه من معتقداتهم، وألِفوه من عادتهم، فنقموا ذلك عليه، وليس في العادة أن يُجبَر الإنسان على الانتقال من مذهبه، ولا عن الانحراف عن معتقده، ومعلومٌ أنَّ أهل قاشان كانوا على مذهب أبي حنيفة، فلم يكن يلزمهم أصحاب الشافعي الدخول في معتقدهم، وكذا أصحاب الظاهر اعتقدوا مذهب الشافعي، فلم يُلزمهم أصحابُ الرأي الخروجَ عن مذهبهم، وقد منع اللهُ عن ذلك مَنْ تقدَّم، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام: ١٠٨] وقد كان أهلُ المذاهب بأصبهان وغيرها من البلاد أكثرَ انتشاراً منه ببغداد، فلم يتقدَّم إليهم في ذلك بما يشقُّ به عليهم، والشيخ أبو إسحاق فرجلٌ سليمُ الصدر، سلسُ الانقياد، يُصغي إلى كلِّ ما يُنقل إليه، ويقع تعويلُه عليه، وعندنا مِنْ تضادِدِ كتُبه ما يدلُّ على ما وصفناه من سهولة مجتذبه، والسلام. وبلغَ الحنابلةَ، فسُرُّوا واطمأنُّوا، وانبسطوا واستطالوا، فلمَّا كان في اليوم الثامن من شوال ومجتمع الناس للبطالة والفرجة خرج من مدرسة النظامية فقيهٌ يُعرَفُ بالإسكندراني ـ وكان معروفاً بإثارة الفتن ـ ومعه جماعةٌ من أبناء جنسه إلى سوق الثلاثاء، فتكلم بتكفير الحنابلة، فثاروا عليه وضربوه، ونُهِبَ السوقُ، وقُتِلَ بينهم رجلٌ من الشافعية، وثارت الفتنة، وترامَوا بالنُّشَّاب، وبعث الخليفةُ أصحابَه وخدمَه الخواصَّ، ففرَّقوا بينهم، وحُمِلَ القتيلُ إلى الديوان، وكُتِبَ إلى نظام الملك بشرح الحال، فجاءت منه مكاتبات بضد الأول، وأن يُدخِلَ العميدُ يدَه في بعض إقطاع الخدمة الذين نشِبتْ إليهم الفتنة، ووصل تاج الدولة تُتُش أخو ملك شاه إلى الشام.

وفي يوم السبت التاسع عشر من شوال وُلد للخليفة مولودٌ سمَّاه أحمد، وكنَّاه أبا العباس، وجلس الوزير فخر الدولة في باب الفردوس للهناء، وغُلِّقت بغداد من الجانبين سبعة أيام، وهذا المولود ولي الخلافة وهو المستظهر بالله، ووُلِدَ له في ذي القعدة آخرُ سمَّاه هارون، وتُوفِّي في العشر الثاني من رمضان سنة إحدى وسبعين وأربع ومئة[1].

(١) الخبر في المنتظم ١٦/ ١٩١ .

وفيها توفِّي

أحمد بن عبد الملك بن علي[1]

أبو[2] صالح، النيسابوري، المؤذِّن، ولد سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة، وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وسمع الحديث الكثير، وصنَّف الأبواب والشيوخ، وكان يؤذِّن ويَعِظ، وكانت وفاتُه بنيسابور في رمضان، وكان قد سأل اللهَ أن لا يُميتَه إلَّا فيه، فاستجاب دعاءَه، وخرج عن ألف شيخ له ألف حديث، كلُّ حديث عن شيخ، وكان شيخ الصوفية في وقته علماً وعملاً وصدقاً وأمانةً وصلاحاً، وكان حافظاً صدوقاً، أنشد لغيره[3]: [من البسيط]

يا رُبَّ ساعٍ له في سعيهِ أملٌ يفنى ولم يَقْضِ من تأميلهِ وطَرا
ما ذاقَ طعمَ الغنى من لا قنوعَ لهُ ولن ترى قانعاً ما عاش مفتقرا
العُرْفُ مَنْ يأتِهِ يحمَدْ مغبَّتَهُ ماضاعَ عُرْفٌ ولو أوليتَهُ حَجَرا

عبد الخالق بن عيسى[4]

ابن أحمد بن محمد بن عيسى بن أحمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن عبدالله ابن سعيد بن العباس، أبو جعفر بن أبي موسى، الشريف، الهاشمي إمام الحنابلة ومُقدَّمهم في زمانه، وُلِدَ سنة إحدى عشرة وأربع مئة، كان إماماً ورعاً فاضلاً، قوَّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، تفقَّه على القاضي أبي يعلى، وكان يشهد، ثم ترك الشهادة قبل وفاته، ولم يزَلْ يُدرِّس بمسجده في سكة الخرقي بباب البصرة وجامع

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٢٦٧، والمنتظم ١٦/ ١٩٣، والكامل ١٠/ ١٠٨، ومعجم الأدباء ٣/ ٢٢٤، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٢٨٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ١٠٦ وغيرها. وتنظر تتمة المصادر في السير ١٨/ ٤١٩.

(٢) في (خ): بن، والتصويب من المصادر.

(٣) وهو مهدي بن سابق كما في مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٣/ ١٥٨، ونسب ـ أيضاً ـ كما في الحلية ٧/ ٢٢٠ إلى مسعر بن كدام.

(٤) المنتظم ١٦/ ١٩٥-١٩٧، وطبقات الحنابلة ٢/ ٢٣٨-٢٤١، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٥١-٢٦. وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٥٦٤.

المنصور مدةً، ثم انتقل إلى الجانب الشرقي، فكان يُدرِّس بمسجد مقابل دار الخلافة، ودرَّس بجامع الرُّصافة وغيره، ولمَّا غسَّلَ القائمَ أوصى له بأشياء كثيرة، فلم يأخذ منها شيئاً، فلمَّا فرغ من غسله استدعاه المقتدي فبايعه في مكانه منفرداً، وأسكنه المقتدي في داره خوفاً عليه، ولمَّا اشتدَّ مرضُه قال: احملوني إلى باب حجرة الخليفة. فحملوه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرُبَ الوقتُ، وما أُحِبُّ أن أموت إلَّا بين أهلي. فأذِنَ له، فمضى إلى بيت أخته بالحريم الطاهري، ولم يُخلِّف شيئاً من الدنيا سوى الحبل والدلو الذي كان يستقي به الماء، وكتاباً يُطالع فيه، وكانت وفاتُه ليلةَ الخميس النصف من صفر، وصُلِّي عليه يوم الجمعة بجامع المنصور، وكان يوماً مشهوداً، يُقال في جنازته: ترحَّموا على الشهيد المسموم القتيل. فيُقال: إنه سمَّه بعضُ المخالفين في مداسه. ودُفِن إلى جانب الإمام أحمد رحمة الله عليه، وكان الناسُ يبيتون هناك كلَّ ليلة أربعاء، ويبيعون المأكول والفواكه، فيُختَم عنده في تلك المدة عشرةُ آلاف ختمة، ثم جاء الشتاء، فانقطعوا. وكان صدوقاً، ثقةً، زاهداً، عابداً، وصنَّف التصانيف في مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

عبد الرحمن بن محمد(١)

ابن إسحاق بن محمد بن يحيى بن إبراهيم، أبو القاسم، الأصفهاني، ويُعرَفُ بابن مندة، ومندة لقب إبراهيم جدِّه، إمامٌ ابنُ إمام، وُلد سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة، وسمع خلقاً كثيراً، وكان عظيمَ الشأن، كثيرَ السماع، سافر البلاد، وصنَّف التصانيف، وخرَّج التاريخ، وكان له سمتٌ ووقارٌ، وأتباعٌ فيهم كثرة، وكان متمسكاً بالسنة، معرضاً عن أهل البدع، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، وكانت وفاتُه بأصبهان، وصلَّى عليه أخوه عبد الوهاب، وكان في جنازته خلقٌ لا يُحصَون كثرةً.

---

(١) المنتظم ١٦/ ١٩٤-١٩٥ ، وطبقات الحنابلة ٢/ ٢٤٢ ، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٦-٣١، والكامل ١٠/ ١٠٨. وتنظر باقي المصادر في السير ١٨/ ٣٤٩ .